مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق) : آب سنة ١٩٢٥ م الموافق محرم وصفر سنة ١٣٤٤ هـ

# شعراء الشام في القرن الثالث

## = ٢ =

## ابو تمّام الطائي

ابو تمّام حبيب بن أوس الطائي ولد بقرية جاسم من بلاد الجيدور من اعمال دمشق سنة (١٩٠) وخدم حائكاً وعمل عنده بدمشق وكان ابوه خمّاراً بها ، ورحل في حداثته الى مصر وكان يسقي الناس ماء بالجرة في المسجد الجامع بها ، ثم جالس الادباء فأخذ عنهم وتعلم وكان فطناً فهماً يحب الشعر فلم يزل يعانيه حتى أجاده ، ولكنه لم يحمد مقامه في مصر فإن له قصيدة يتشوق بها الى دمشق و يشكو تقتير الرزق عليه في مصر نروي منها هذه الأبيات .

سقى الرائح الغادي المهجرُ بلدةً ... سقتني أنفاس الصبابة والخبلِ
فجاد دمشقاً كلها جودَ اهله ... بأنفسهم عند الكريهة والبذل
فلم يبق في ارض البقاعين بقعةٌ ... وجاد قرى الجولان بالمسبل المطل
بنفسي ارض الشام لا أيمن الحمى ... ولا أيسر الدهنا ولا أوسط الرمل
عدتني عنكم مكرهاً غربة النوى ... لها وطرٌ ان تُمرَّ ولا تحلي
أخمسة اعوام مضت لمغيبه ... وشهران بل يومان ثكل على ثكل
توانى وشيك النجح عنه ووكلت ... به عزمات أوقفته على رجل
قضى الدهر مني نحبه يوم فتله ... هواي بإرقال الغريرية الفتل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نأيت فلا مالاً حويت ولم أُقِم فأمنع اذا فجعت بالمال والأهل
بخلتُ على عرضي بما فيه صونه رجاء اجتناء الجود من شجر البخل
عصيت شبا حزمي لطاعة جيرة دعتني الى ان أفتح القفل بالقفل

ومن هذه الابيات يعرف ان مدة اقامته في مصر كانت خمس سنوات قضاها بالضنك ، ولم يسلم من عداوة شعراء مصر فقد ورد في ديوانه قصيدتان يهجو بهما يوسف السراج الشاعر المصري ، ومهما يكن فان اوليته في الادب كانت في مصر ومنها سار شعره وشاع ذكره وبلغ المعتصم خبره فحمله اليه وقدمه على شعراء وقته ، وجالس في بغداد الأدباء وعاشر العلماء وكانت بعد ذلك حياته القصيرة رحلة طويلة فقد رحل الى مكة حاجاً وله قصيدة في ذلك منها :

وقد أممت بيت الله نضواً على عيرانة حرف سعوم
أتيت القادسية وهي ترنو اليَّ بعين شيطان رجيم
فما بلغت بنا عسفان حتى رنت بلحاظ لقمان الحكيم

وذهب الى خراسان مادحاً عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب ، والى ارمينية مادحاً خالد بن يزيد ، والى بلاد الجبل مادحاً محمد بن الهيثم ، وزار نيسابور وأبرشهر والموصل وغيرها ، ولا أدلُّ على كثرة أسفاره من قوله :

ما اليوم اول توديعي ولا الثاني البين أكثر من شوقي واحزاني
دع الفراق فان الدهر ساعده فصار املك من روحي وجثماني
خليفة الخضر من يربع على وطنٍ في بلدةٍ فظهور العيس أوطاني
بالشام أهلي وبغداذ الهوى وانا بالرقمتين وبالفسطاط اخواني
وما اظن النوى ترضى بما صنعت حتى تشافه بي اقصى خراسان
خلّفت بالأفق الغربي لي سكناً قد كان عيشي به حلواً بحلوان

وقوله ايضاً :

سلي هل عمرت الثغر وهي سباسبٌ وغادرت ربعي من ركابي سباسبا
وغرّبت حتى لم اجد ذكر مشرق وشرّقت حتى قد نسيت المغاربا

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كان أبو تمّام موصوفاً بالظرف وحسن الاخلاق وكرم النفس من ذلك انه كان يرى الادب نسباً و يرى له حقاً واجب الرعاية قال :

وقرابة الآداب تقصر دونها عند الأديب قرابة الأرحام

وقال في علي بن الجهم الشاعر وقد أراد سفراً :

هي فرقةٌ من صاحب لك ماجدٍ فغداً إذابة كل دمع جامدِ
فافزع الى ذخر الشؤون وعُدّهِ فالدمع يُذهب بعض جهد الجاهد
وإذا فقدت أخاً فلم تفقد له دمعاً ولا صبراً فلستَ بفاقد
أعلي يا ابن الجهم إنك دفت لي سمّاً وجمراً في الزلال البارد
إن يكد مطّرف الاخاء فإننا نغدو ونسري في إخاء تالد
او يختلف ماء الوصال فماؤنا عذبٌ تحدّر من غمامٍ واحد
او يفترق نسبٌ يؤلف بيننا أدبٌ أقمناه مقام الوالد

وقال : أيُّ شيءٍ يكون أحسن من صبٍّ أديب متيمٍ بأديب

ومن ذلك قوله يصف سحابة ويمثل فرح الارض بها بفرحة الأديب بالأديب

لما بدت للارض من قريب تشوّفت لوبلها السكوب
تشوق المريض للطبيب وطرب المحب للحبيب
وفرحة الأديب بالأديب

وفي أخذه بضبع البحتري و إطرائه له وتقديره اياه احسن دليل على عطفه على الادباء وحبه لهم ، وهذا خلق يكبره الانسان اذا علم ان التحاسد اظهر مايكون بين الشعراء .

* * *

وكان ابو تمّام يتولى عليّاً وآله عليهم السلام وله في ذلك قصيدة منها قوله :

فعلتم بابناء النبي ورهطه أفاعيل ادناها الخيانة والغدرُ
ومن قبله أخلفتمُ لوصيّه بداهية دهياء ليس لها قدر
أخوه اذا عُدّ الفخار وصهره فلا مثله أخ ولا مثله صهر
وبوم الغدير استوضح الحقّ اهلهُ بضحاء لا فيها حجاب ولا ستر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أقام رسول الله يدعوهم بها ليقربهم عرف ويناهم نكر
يمدُّ بضبعيه ويعلم انه ولي ومولاكم فهل لكم خبر
فكان لهم جهر باثبات حقه وكان لهم في برهم حقه جهر
جعلت هواي الفاطميين زلفةً الى خالقي مادمت او دام لي عمر
وكوّفني ديني على ان منصبي شآم ونجري أيةً ذكر النجر

ولكنه مع ذلك اذا مدح بني العباس اثبت لهم من الحق في الخلافة ما ينتفي معه حق علي واولاده منها كقوله من قصيدة في الواثق :

فرسان مملكة أسود خلافة ظلُّ الهدى غابٌ لهم وعرين
قوم غدا الميراث مضروبًا لهم سور عليه من القُران حصين
فيهم سكينة ربهم وكتابه وإمامتاه واسمه المخزون

وكقوله من قصيدة في المعتصم :

فالأرض دار اقفرت مالم يكن من هاشمٍ ربٌّ لتلك الدارِ
سور القران الغرّ فيكم أُنزلت ولكم تصاغ محاسن الاشعار

وكقوله من قصيدة في الواثق :

ورث الخلافة عن اسنه التي منعت حمى الآباء والاعمامِ
أخذ الخلافة بالوراثة أهلها وبكل ماضي الشفرتين حسام
فلسورة الأنفال في ميراثه آثارها ولسورة الانعام
لاقدح في عود الخلافة بعدما متّت اليك بحرمة وذمام
هيهات تلك قلادة الله التي ما كان يتركها بغير نظام
إرث النبي وجمرة الملك التي لم تخل من لهب بكم وضرام
مذخورة احرزتها بحكومة لله تشدخ أرؤس الحكام
لسنا مريدي حجة نشفي بها من ريبة سقماً من الاسقام
فالصبح مشهور بغير دلائل من غيره انبعثت ولا أعلام

فبأي اقواله نأخذ لنعلم أشيعيًا متشدداً كان أم من غلاة النواصب ؟ ولكن اذا أمعنا في البحث وجدنا ان قصيدته في الامام علي قالها في مصر قبل ان يتصل بالخلفاء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كما يعلم ذلك من القصيدة نفسها ، فلما وفد على المعتصم كان لا يزال مواليًا عليًا فمدحه بقصيدة لم يسرف فيها بمدح آل العباس ولم يسلب آل البيت حقهم فقال منها:

آل النبي اذا ماظلمة طرقت كانوا لنا سرجًا انتم لها شعلُ (١)

ثم لما أغدق عليه الخلفاء إعطياتهم أباح لنفسه أن يقول بهم ماسمعت و يجعل الخلافة إرثاً وحقًا لهم نصَّ عليه القرآن وأنزلت به براءة من الرحمن .

ولأبي تمَّام كما لغيره من الشعراء ضرائب واشكال من مثل ما سمعت فهو يقول في الافشين والمعتصمُ راضٍ عنه :

لم يقر هذا السيف هذا الصبر في هيجاء الا عزَّ هذا الدينُ
قد كان عذرة مغرب فافتضَّها بالسيف فحل المشرق الافشين
فسيشكر الاسلام ما أوليته والله عنه بالوفاء ضمين

ثم يقول لما قتله المعتصم وحرقه :

ما زال سر الكفر بين ضلوعه حتى اصطلى سر الزناد الواري
ناراً يساور جسمه من حرها لهبٌ كما عصفرتَ شق إزار
صلى لها حيًّا وكان وقودها ميتًا و يدخلها مع الفجار
وكذاك اهل النار في الدنيا همُ يوم القيامة جلُّ اهل النار

والذنب في مثل هذا الرياء يشترك به المادح والممدوح فان الخلفاء والملوك لم يرفعوا من قدر الشعر بمقدار ما وضعوا من اخلاق الشعراء .

* * *

قالوا وكان ابو تمام اسمر طويلاً فصيحًا حلو الكلام فيه تمتمة يسيرة وفي ذلك يقول ابن المعذل او ابو العميثل :

يانبيَّ الله في الشعـ ـر ويا عيسى ابن مريمْ
انت من أشعر خلق اللـه ما لم تتكلم

(١) في تاريخ ابن عساكر : إن اول قصيدة مدح بها ابو تمَّام المعتصم القصيدة التي منها هذا البيت :



هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال صاحب الاغاني : وكان إنشاد ابي تمام قبيحاً وكان له غلام اسمه الفتح اشتراه بثلاثمائة دينار لينشد شعره وكان غلاماً اديباً فصيحاً .

وولى الحسن بن وهب ابا تمام بريد الموصل فاقام بها اقل من سنتين وتوفي بها سنة (٢٣١) قال البحتري : وبنى عليه ابو نهشل بن حميد الطوسي قبة ، وقال ابن خلكان : رأيت قبره بالموصل خارج باب الميدان على حافة الخندق والعامة تقول هذا قبر تمام الشاعر . ورثاه الحسن بن وهب وابن الزيات وديك الجن والبحتري .

* * *

رزق ابو تمام شهرة في حياته وبعد مماته قل ما ظفر بمثلها شاعر فقد تولى زعامة الشعر فكان الشعراء يعرضون عليه اشعارهم كما عرض البحتري عليه شعره بحمص إقراراً بامامته واعترافاً بفضله ، وقد زعم بعضهم انه ما كان احد من الشعراء يقدر على ان يأخذ درهماً بالشعر في حياة ابي تمام فلما مات اقتسم الشعراء ما كان يأخذه . وظل المثل الاعلى لاكثر الشعراء اكثر من الف سنة يتحدون طريقته ويطبعون على غراره ولو اردنا ان ننقل ماقيل فيه من التقريظ والثناء لطال نفس الكلام واقل ذلك ان ابا تمام والبحتري والمتنبي هم الثلاثة المجمع على تقديمهم والمختلف في ايهم اشعر .

لانريد ان نروي آراء الناس في الرجل على علاتها ولكن نحاول ان نعرف الأسباب التي أهلته لتبوء هذه المنزلة . الأسباب التي كونت عظمة ابي تمام ثلاثة على ما نظن : العلم ، والثقة بالنفس ، والاختراع .

أما علمه : فقد اتفق الرواة على انه كان له من المحفوظات مالا يلحقه فيه غيره ، قيل انه كان يحفظ اربع عشرة الف أرجوزة غير القصائد والمقاطيع ، وقال هو عن نفسه : لم أنظم الشعر حتى حفظت سبعة عشر ديواناً للنساء خاصة دون الرجال ، والكتب التي جمعها تدل على سعة اطلاعه وهي : كتاب الحماسة الذي دل على غزارة فضله وإتقان معرفته وحسن اختياره ، وكتاب فحول الشعراء جمع فيه بين طائفة كبيرة من شعراء الجاهلية والمخضرمين والاسلاميين ، وكتاب الاختيار من أشعار القبائل . ولم يكن علمه محصوراً في الشعر وانما كان مضطلعاً بعلوم العربية حتى ذكره الانباري في طبقات الادباء النحاة دون غيره من الشعراء الذين عاصروه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي تاريخ ابن عساكر : انه حدّث عن صهيب بن ابي الصهباء الشاعر والعطاف ابن هرون وكرامة بن ابان العدوي وابي عبدالرحمن الاموي وسلامة بن جابر الهندي ومحمد بن خالد الشيباني وروى عنه خالد بن شريد الشاعر والوليد بن عبادة البحتري ومحمد بن ابراهيم بن عتاب والعبدوي البغدادي .

وانت اذا نظرت في ديوانه رأيت أثر العلم بادياً فيه كإيراد امثال العرب [1] وذكر قبائلهم وأيامهم ووقائعهم وأبطالهم وفرسانهم واجوادهم وحكمائهم وشعرائهم وكالإلماع الى تاريخ الفرس [2] ولا تعدم في الديوان العثور على الإشارات النحوية [3] والاصطلاحات العلمية كالخصوص والعموم [4] وسيرد في معانيه المخترعة مسألة من مسائل الدور في الفقه .

وقال ابو عبد الله الرقي : رأيت من ابي تمّام رجلاً عقله وعلمه فوق شعره، وقال الآمدي : كان ابو تمّام مشهوداً له بالعلم والشعر والرواية وان العلم في شعره أظهر وانه أتى في شعره بمعان فلسفية .

واما ثقته بنفسه : فقد كان يرى ان المتأخر يدرك شأو المتقدم وان الشعر صوب العقول فكما ان العقل لم يقصر على زمن دون زمن فكذلك الشعر قال :

يقول من تقرع أسماعه كم ترك الاول للآخر

وقال : فلو كان يفني الشعر أفناه ما فرت حياضك منه في العصور الذواهب
ولكنه صوب العقول اذا انجلت سحائب منه أعقبت بسحائب

وربما قادته هذه الثقة الى الإعجاب الشديد بنفسه قال ابو هلال العسكري : كان البحتري يلقي من كل قصيدة يعملها جميع ما يرتاب به فخرج شعره مهذباً وكان ابو تمّام لا يفعل هذا الفعل وكان يرضى بأول خاطر فنعي عليه عيب كثير . وقال

(١) كقوله : الا ويل الشجي من الخلي وبالي الربع من احدى بلي
(٢) كقوله : بل كان كالضحاك في سطواته بالعالمين وانت أفر يذبونُ
(٣) كقوله : خرقاء يلعب بالعقول حبابها كتلاعب الافعال بالاسماء
(٤) كقوله : لن ينال العلى خصوصاً من الفتـ ـيان من لم يكن نداه عموما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

صاحب الاغاني : روي عن بعض الشعراء ان ابا تمام انشده قصيدة له احسن في جميعها لا في بيت واحد ، فقال له : يا أبا تمام لو القيت هذا البيت ما كان في قصيدتك عيب ، فقال له : انا والله اعلم منه مثل ما تعلم ولكن مثل شعر الرجل عنده مثل اولاده فيهم الجميل والقبيح والرشيد والسافط وكلهم حلو في نفسه فهو وان أحب الفاضل لم يبغض الناقص وان هوي بقاء المتقدّم لم يهو موت المتأخر . وقال له رجل لِمَ لا تقول من الشعر ما يُفهم ؟ فقال له وأنت لم لا تفهم من الشعر ما يُقال ؟

وهو بعد يرى نفسه أشعر الثقلين قال يخاطب ناقته في حجة حجّها :

أقول لها وقد أوحت بعين إليّ تشكيّ الدنف السقيم
يكورك أشعر الثقلين طرّاً وأوفى الناس في حسب صميم

واما اختراعه : فقد عدّه صاحب العمدة اكثر الشعراء المولدين اختراعاً فقال : اكثر المولدين معاني وتوليداً فيما ذكره العلماء ابو تمام ، وقال في موضع آخر : اكثر المولّدين اختراعاً وتوليداً فيما يقول الحذاق ابو تمام وابن الرومي ، وكان ابن الرومي يقول : ابو تمام يطلب المعنى ولا يبالي باللفظ حتى لو تمّ له المعنى بلفظة نبطية لاتى بها ، وسئل البحتري عن نفسه وعن ابي تمام فقال : كان اغوص على المعاني وانا أقوم بعمود الشعر .

وقال الآمدي : وجدت اهل البصرة من أصحاب البحتري ومن يقدّم مطبوع الشعر دون متكلّفه لا يدفعون ابا تمام عن لطيف المعاني ودقيقها والإبداع والإغراب والاستنباط لها ، وان اهتمامه بمعانيه اكثر من اهتمامه بتقويم الفاظه على كثرة غرامه بالطباق والتجنيس والمماثلة وانه اذا لاح له معنى اخرجه باي لفظ استوى من ضعيف او قوي .

وقال صاحب الاغاني : ابو تمام لطيف الفطنة دقيق المعاني ، غواص على ما يستصعب منها ويعسر متناوله على غيره .

وقال صاحب المثل السائر : قد قيل ان ابا تمام اكثر الشعراء المتأخرين ابتداعاً للمعاني وقد عدّت معانيه المبتدعة فوجدت ما يزيد على عشرين معنى فمن ذلك قوله :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يا ايها الملك النائي برؤيته ... وجوده لمراعي جوده كثبُ
ليس الحجاب بمقصٍ عنك لي املاً ... إن السماء ترجى حين تحتجب

وقوله : رأينا الجود فيك وما عرضنا ... لسجلٍ منه بعد ولا ذنوب
ولكن دارة القمر استهمت ... فدلتنا على مطر قريب (١)

وقوله : واذا اراد الله نشر فضيلةٍ ... طويت اتاح لها لسان حسودِ
لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طيب عرف العود

وقوله : لا تنكروا ضربي له من دونهِ ... مثلاً شروداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الاقل لنوره ... مثلاً من المشكاة والنبراس

وقوله : لا تنكري عطل الكريم من الغنى ... فالسيل حرب للمكان العالي

وقوله في الشيب :

شعلة في المفارق استودعتني ... في صميم الفؤاد ثكلا صميماً
يستثير الهموم ما اكتنّ منها ... صعداً وهي تستثير الهموما

قال ابن الأثير : فالبيت الثاني من المعاني المخترعة وقد تفقّه فيه فجعله مسألة من مسائل الدور وهذا من إغراب ابي تمام المعروف وهذا القدر كاف من جملة معانيه فانا لم نستقصها ههنا .

وذكر صاحب العمدة من معانيه المخترعة قوله :

بني مالك قد نبهت خامل الثرى ... قبورٌ لكم مستشرفات المعالم
غوامض قيد الكف من متناول ... وفيهـا علاً لا يرتقى بالسلالم

وقوله : يأبى على التصريد الا نائلاً ... ان لم يكن محضاً قراحاً يمذقِ
نزراً كما استكرهت عائر نفحة ... من فأرة المسك التي لم تفتق

* * *

كان ابو تمام مع غزارة علمه وثقته بنفسه وقوة اختراعه نسيج وحده في جزالة الالفاظ وشدة أسر الشعر وحسن الديباجة وكرمها يؤثر الصنعة كثيراً وهو صاحب

(١) نقل بعد هذين البيتين بيتين لم نستحسن نقلهما .



هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

مذهب في البديع عرف به وان كان غيره سبقه اليه وقال القليل منه ولكن ابا تمام التزمه في كل شعره وجعله ركن الشعر وعموده ومن أجله حجر على نفسه واسعاً وألزمها مالا يلزم .

ومن عجيب ولعه بالصنعة انه اقام شطر بيت فيه طباق حسن مقام النسب ، قال الفتح غلام ابي تمام ، سألت مولاي ابتمام عن نسب دعبل فقال هو دعبل بن علي الذي يقول .

« ضحك المشيب برأسه فبكى »

يحاول ابو تمام ان يطبق مذهبه في البديع على كل بيت من شعره بل على كل كلمة وفي ذلك من الاخذ بالشدة مالا مزيد عليه ، سمعه اسحق الموصلي ينشد شعراً له فقال له : « يا هذا لقد شققت على نفسك ان الشعر لاقرب مما تظن » .

وما اعجب لشيء كعجبي هذا الرجل كيف تمكن من الاجادة مع هذا الاستقصاء في البديع فهو كمن يريد ان يبني هرماً من ارجل النمل او ينقش صورة الاقاليم على فص خاتم . .

واعجب من ذلك ان هذه العناية باللفظ لم تصرفه عن العناية بالمعنى فقد كان يغوص على المستصعب منه كما مرّ بك .

بلغ ابو تمام ذروة الشعر ولكن سلك اليها طريقاً وعراً صعب المسالك ما سلكه احد من الشعراء بعده و بلغ مبلغه ، ولقد احسن المتنبي لما أعجزه هذا الطريق فتحول عنه الى غيره فأتى بما ملأ الدنيا وشغل الناس .

ولو لم يكن البحتري سيد المطبوعين على قول الشعر لما حدّثته نفسه بتحدي ابي تمام على انه وان مال الى الصنعة في شعره فالطبع فيه أبين وأظهر .

نعم انا لا أنكر ان ابا تمام صاحب مذهب في الشعر ولكن مذهبه على إحكامه شاق يعجز أتباعه عن اتباع قواعده واحكامه كما سنبّت ، فصاحبه اشبه بناسك غلا في الزهد والتقشف والاخذ بالعزائم فأكبره مريدوه ولكنهم عجزوا عن مجاراته فانصرف عنه بعضهم واكثر من بقي حوله كان زهده رياء ونفاقاً وكذلك حال الشعراء بعد ابي تمام .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فلا عجب اذا تعب ابو تمام في شعره ووجد شدة في قرضه — ومذهبه في اللفظ وغوصه على المعنى كما علمت — فقد روي عنه انه كان فيه ابطاء بقول الشعر ، وقال صاحب العمدة : كان ابو تمام يكره نفسه على العمل حتى يظهر ذلك في شعره ، وحكى بعض اصحاب ابي تمام قال استأذنت عليه فدخلت في بيت مصهرج قد غسل بالماء فوجدته يتقلب يميناً وشمالاً ، فقلت لقد بلغ بك الحر مبلغاً شديداً ، قال لا ولكن غيره ومكث كذلك ساعة ثم قام كأنما أطلق من عقال فقال الآن أردت ثم استمد وكتب شيئاً لا أعرفه ، ثم قال أتدري ما كنت فيه منذ الآن قلت كلا قال قول ابي نواس:

« كالدهر فيه شراسة وليانُ »

أردت معناه فشمس عليَّ حتى أمكن الله منه فصنعت :

شرست بل لنت بل قانيت ذاك بذا فأنت لا شك فيك السهل والجبلُ

قال صاحب العمدة : ولعمري لو سكت هذا الحاكي لنمَّ هذا البيت بما كان داخل البيت لان الكلفة فيه ظاهرة والتعمل بيّن .

ولابي تمام فصل في قرض الشعر ينم على شدة اهتمامه ومبلغ تنوقه ، قال المجتبري: كنت في حداثتي اروم الشعر و كنت ارجع فيه الى طبع ولم أكن اقف على تسهيل مأخذه ووجوه اقتضائه حتى قصدت ابا تمام فانقطعت فيه اليه واتكلت في تعريفه عليه ، فكان اول ماقال لي : يا ابا عبادة ! تخير الاوقات وأنت قليل الهموم صفر من الغموم واعلم ان العادة في الاوقات ان يقصد الانسان لتأليف شيء او حفظه في وقت السحر وذلك ان النفس قد اخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم ، فان اردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقاً والمعنى رشيقاً وأكثر فيه من بيان الصبابة وتوجع الكآبة وقلق الاشواق ولوعة الفراق ، واذا اخذت في مدح سيد ذي ايادٍ فأشهر مناقبه وأظهر مناسبه وأبن معالمه وشرّف مقامه ، وتقاض المعاني واحذر المجهول منها . إياك ان تشين شعرك بالالفاظ الوزية ، وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الاجسام واذا عارضك الضجر فأرح نفسك ولا تعمل الا وأنت فارغ القلب ، واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة الى حسن نظمه فان الشهوة نعم العون ، وجملة الحال ان تعتبر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

شعرك بما سلف من شعر الماضين فما استحسنته العلماء فاقصده وما تركوه فاجتنبه ترشد ان شاء الله تعالى .

زعم صاحب الاغاني ان ابا تمام شاعر مطبوع ولعل لديه دليلاً على ذلك لم نهتد اليه ، فابو تمام على ما نعلم لايجوز ان يعد مع المطبوعين كجرير وابي نواس وأشجع السلمي والبحتري وهبه مطبوعاً فان الحدود التي اخذ بها نفسه كفيلة بتعطيل قوة الطبع واخفاء أثره ، فانت اذا استعرضت شعره لم تجد اثر الطبع شائعاً فيه بل وجدت عناء الصانع المستقصي الذي يجهد نفسه كثيراً لينال غاية الاحسان . ولعل صاحب الاغاني يعني بالطبع المقدرة على اجادة الشعر سواء أتكلف الشاعر ام لم يتكلف .

كانت روايته الواسعة لأشعار العرب تحمله على إيثار الجزالة في اللفظ ، وكانت ثقفه بنفسه تحوله الامعان في فنون البديع والتوسع في الاستعارة على غير مناهج العرب حتى قيل ان شعره استعارة وبديع ، قال صاحب الوساطة :

« كانت الشعراء تجري على نهج من الاستعارة قريب من الاقتصاد حتى استرسل فيه ابو تمام ومال الى الرخصة فاخرجه الى التعدي وتبعه اكثر المحدثين بعده فوقفوا عند مراتبهم من الاحسان والاساءة والتقصير والاصابة » .

قالوا ومن رديء الاستعارة قوله :

« حتى انقته بكبياء السؤدد »

وقوله : كلوا الصبر مرًّا واشربوه فانكم أثرتم بغير الظلم والظلم بارك

نحن لاندرأ هذا وكثيراً مثله عن ابي تمام كما اننا نعترف بان له من الجيد ما لا يتعلق به غيره ، ولكننا نرى ان المركب الصعب الذي ركبه كثيراً ما مال به الى التعقيد والتوعير والغموض والخروج عن المألوف فلقد سمع أعرابي قصيدته التي أولها :

« طلل الجميع لقد عفوت حميدا »

فقال ان في هذه القصيدة اشياء افهمها واشياء لا افهمها فإما ان يكون قائلها أشعر الناس واما أن يكون جميع الناس أشعر منه .

لا جدال في ان ابا تمام كان يؤثر الصنعة اللفظية وهو القائل :

« يروقك بيت الشعر حين يصرّع »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولكن الذي جعله يغلو بها هو روح العصر السائدة إذ ذاك ، فقد كان الشعراء يتهافتون على الصنعة ولا تواتيهم كما تواتي ابا تمام ، جاء دعبل الشاعر الى الحسن بن وهب بعد موت أبي تمام فقال له رجل في المجلس انت الذي تطعن على من يقول :

وانجدتمُ من بعد إتهام داركم فيا دمع انجدني على ساكني نجد

فصاح دعبل أحسنَ والله وجعل يردد ( فيا دمع انجدني على ساكني نجد ) ثم قال : رحمه الله لو كان ترك لي شيئًا من شعره لقلت انه اشعر الناس . ودعبل هذا كان يثلب ابا تمام و يقول انه مسروق للشعر ، فانظر ما فعل به الجناس و كيف استلّ سخيمته واطلق لسانه بترديده ، ولو قال ابو تمام « فيادمع ساعدني على ساكني نجد» أتظن دعبلاً يصيح بغير استتمة ؟

* * *

واحسن شعر أبي تمام ما كان في الرثاء وله في المديح آيات ، سئل البحتري عنه فقال : مدّاحة نوّاحة . ومن مراثيه قوله يرثي ابنين صغيرين لعبد الله بن طاهر :

نجلان شاء الله ان لا يطلعا الا ارتداد الطرف حتى يأفلا
ان الفجيعة بالرياض نواضراً لأجلُّ منها بالرياض ذوابلا
لهفي على تلك الشواهد فيهما لو أمهلت حتى تكون شمائلا
لغدا سكونهما حجىً وصباهما حلماً وتلك الاريحية نائلا
ان الهلال اذا رأيت نموّه أيقنت ان سيكون بدراً كاملا

وقصائده في هذا الباب مشهورة منها التي أولها :

اصمّ بك الناعي وان كان أسمعا واصبح مغنى الجود بعدك بلقعا

والتي مطلعها :

كذا فليجل الخطب وليفدح الامر فليس لعين لم يفض ماؤها عذرُ

وقال في اخ له قد حضر وفاته :

لله مقلته والموت يكسرها كأن اجفانه سكرى من الوسن
يردُّ أنفاسه كرهاً وتعطفها يد المنية عطف الريح للغصن
ياهول ما ابصرت عيني وماسمعت أذني فلا ابصرت عيني ولا اذني

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لم يبق من بدني جزء علمت به الا وقد حله جزء من الحزن

فانت تحس في رثائه نفساً تسيل اسى وتجيد التفجع ، ولقد يرثي من لا تعطفه عليه عواطف الحنان فيبكيك ويشجيك كالثكلى حين تندب وحيدها ، فتسائل نفسك اكان ابو تمام صادقاً في كل مراثيه وهل حزن حقيقة على كل من رثاه ؟ وانا أجيب كلاً فربما رثى من كانت حياته وموته عنده سيان ، ولكن ابا تمام من اولئك الناس الذين صحب الحزن نفوسهم وأشرب قلوبهم فقد كان يتخذ من موت الميت سبباً ليعرب عن احزان نفسه ، وينفث بعض ما يعتلج في صدره من البث ، ويصور منظراً من كآبته — لا على الميت فان ذلك كائن قبل موته — وقد يلتوي فهم ذلك الا على من بلاه او ابتلي به . واية نفس تشعر بالشجى اكثر من نفس ابي تمام وهو القائل وقد سمع مغنية تغني بالفارسية :

ولم افهم معانيها ولكن ورت كبدي فلم أجهل شجاها

واما مديحه فليس ذلك المبتذل المعاد الذي اعتاد اكثر الشعراء ترديده فان له في هذا الباب معاني طريفة نادرة كقوله :

فلو صورت نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباع

وقوله : هو البحر من اي النواحي أتيته فلجته المعروف والجود ساحله

تعود بسط الكف حتى لو انه ثناها لقبض لم تطعه انامله

ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فليتق الله سائله

وقوله : لو انا اجماعنا في وصف سؤدده في الدين لم يختلف في الامة اثنان

ولم يقصر في الأدب والحكمة فكثير من شعره جرى مجرى الامثال كقوله :

اولى البرية حقاً ان تراعيه عند السرور الذي آساك في الحزن

ان الكرام اذا ما اسهلوا ذكروا من كان يألفهم في المنزل الخشن

وقوله : وطول مقام المرء في الحي مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد

فاني رأيت الشمس زيدت محبة الى الناس ان ليست عليهم بسرمد

وقوله : ينال الفتى من عيشه وهو جاهل ويكدي الفتى في دهره وهو عالم

لو كانت الأرزاق تجري على الحجى هلكن اذن من جهلهن البهائم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومثل ذلك كثير في شعره لا محل لاستقصائه هنا .

اما غزله فهو اعجب ما في شعره وهو في نظرنا يقسم الى قسمين : قسم صدّر به قصائده وجعله توطئة لاغراضه كالمديح والفخر والوصف على طريقة العرب وهو غزل مصنوع متكلف وعر الألفاظ لاتهش له النفس ، وقسم لم يجعله توطئة لشيء بل هو غزل خالص ، ولم يرسل نفسه على سجيتها في كل شعره كما ارسلها في هذا القسم فلا تكاد تجد به اثراً للجزالة والمتانة بل هو سهل لين ولكنه والحق يقال لايلتئم باجزاء النفس كقوله :

زفراتٌ مقلقاتٌ اسعدتها العبرات
وعويل من غليل اضرمته الحسرات
ونحيبٌ ووجيبٌ ودموع مسبلات
وتباريح اشتياقٍ وهمومٌ طارقات
وفوادٌ مستهامٌ جنته الوجنات
وفتور من فتورٍ اورثته اللحظات
وحبيب صدَّ لما كثرت فيه الوشاة

وهو اذا اراد ان يستعطف حبيبه او يستلين قلبه او يناديه لم يجد وسيلة غير الانبياء فقد قال :

ياسميَّ الذي تبهل بدعو ربه مخلصاً له في قل أوحي
ومكنّى نتوق نفسي اليه بالرسول الكريم بعد المسيح
افصح اليوم ناظرا مستهام نطقا عن ضمير قلب قريح

وقال : ياسميّ النبي في سورة الجن ويا ثاني العزيز بمصر

وقال ايضاً : ياسميّ النبي حين يسمى والذي خص بالجمال وعما

واذا ترفع عن مثل هذا السفساف قال :

قسمت لي وقاسمني بسلطا نٍ من السحر مقلتا عبدوسِ
فالقسيم القسام عن لحظات منها يختلسن حب النفوس
فالذي قاسمت محظ اذا الليل تمطّى من الكرى المنفوس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قال علي بن عبد العزيز الجرجاني : « ولست أدري يشهد الله كيف تصور له ان يتغزل و ينسب وأي حبيب يستعطف بالفلسفة و كيف يتسع قلب عبدوس هذا وهو غلام غر وحدث مترف لاستخراج العويص واظهار المعمى » .

فاين ذاك النحط الذي تراه في قصيدته التي أولها :

« السيف اصدق انباءً من الكتب »

من هذه السخافة لدالة على ان ابا تمام لم يعشق ولم يعرف الحب والذي قاله من الغزل لم يكن الباعث عليه الا قليل من المجون الجاف كقوله :

خمشتني بكفّها وأشارت بطرفها
فتأملت وجهها والتقتني بكفّها
ليت نصفي على الفرا — ش لحاف لنصفها
فأنال الذي أريد — على رغم انفها

وفي الاغاني قصة مجونية وقعت بين ابي تمام و بين الحسن بن وهب قال بها أبو تمام قصيدة اولها :

ابا عليٍّ لصرف الدهر والغير ، وللحوادث والايام والعبر

وشعره في الوصف والفخر والهجاء خير من شعره في الغزل .

ومن الكتب المؤلفة في شعر ابي تمام واخباره : كتاب الموازنة للآمدي و كتاب الرد على ابن عمار فيما خطأ فيه ابا تمام له ايضاً ، و كتاب تفسير شعر ابي تمام لمحمد بن احمد الازهري المتوفى سنة ٣٧٠ ، و كتاب اخبار ابي تمام والمختار من شعره لعلي بن محمد الشمشاطي من أدباء القرن الرابع ، و كتاب شرح شعر ابي تمام لأبي الريحان البيروني لم يتمه . ذكر ذلك ياقوت الرومي في معجم الأدباء عند ترجمة كلٍّ من أصحاب هذه الكتب ، ولم يطبع منها غير كتاب الموازنة . ولأبي العلاء المعري كتاب سماه ذكرى حبيب شرح به ديوان ابي تمام ، ولابي بكر الصولي كتاب في اخبار ابي تمام .

« للبحث صلة » : خليل مردم بك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net